وإيفان الفتى المثقف ملحد لا يعترف إلا بحب الحياة دون اكتراث للدين والإله. فالإنسان في رأيه دعته الضرورة «فاخترع الله. وليس أغرب ما في الأمر ولا أبرزه ـ في رأيه ـ أن الله لا وجود له في الواقع، بل أن هذه الفكرة، فكرة وجود الله بالضرورة، قد أمكن أن تنبت في دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الإنسان من توحش وخبث وشر»[١٤]. وإذا كان إيفان غير مؤمن بفكرة الإله، فإن هذا التفكير أثر في سلوكه وفي علاقاته بالآخرين تأثيراً كبيراً، «فإذا لم يوجد الإله الذي لا نهاية له ـ حسب رأي إيفان الذي كان يلقن أخاه سمردياكوف مبادىء إلحاده ـ فالفضيلة إذن باطل لا جدوى منه ولا داعي إليه»[١٥]. وقد تجلى أثر هذا المنطق في تصرفات إيفان فرأيناه يمقت أباه هو الآخر بشدة ويتحاشى أن يقبله حين يعزم على السفر لغرض من أغراضه الدنيئة، ويكتفي بأن يمد إليه يده مصافحاً. وهو في سره يتمنى موت أبيه ويعلق على النزاع القائم بين أبيه وأخيه «ديمتري» قائلاً: «فلتأكل السراطين بعضها بعضاً»[١٦].

وقد استغل «سمردياكوف» كراهية أخويه لأبيهما فقتله في بيته ليلاً، واتهم ديمتري بدلاً منه فنفي إلى «سيبيريا».

وهذا ما كان ينتظره «إيفان»، لأنه يريد أن يستولي على «كاترين إيفانوفنا» خطيبة أخيه ديمتري، التي كان يحبها في صمت، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأنه سوف يستفيد مادياً فيأخذ نصيبه من تركة أبيه المقتول.

والشخص الوحيد الذي نتعاطف معه في هذه الأسرة هو «أليوشا» الذي يشار إليه أحياناً في الرواية «بالملاك»، والذي يُحِب البشر ويقدر شقاءهم وآلامهم، ويريد أن يعتني بأهله ويصلح بينهم. واسم «أليوشا» مشتق في اللغة الروسية من «أليكسي» التي تعني «المعاون»[١٧]، مما يجعل الاسم مطابقاً للمسمى ودالاً عليه. ومع ذلك فإن النقاد يدينون حتى «أليوشا». ويعدونه من نوع أبيه وأخويه. وكل ما في الأمر ـ في رأيهم ـ أنه يختلف عنهم في الدرجة، فهو في بداية السلّم وهم ارتقوا إلى نهايته، ولن تلبث «الحشرة» أن تعمل عملها في «الملاك»[١٨]. ويستأنس هؤلاء النقاد، إلى رأيهم بعلاقة «أليوشا»